

الطبيعة والإنسان فى شعر محمود حسن إسماعيل

شهدت بدايات التجربة الشعرية عند محمود حسن إسماعيل غروب الكلاسيكية الشعرية العربية وشروق مدرسة أبولو الرومانسية التى تأثرت بروافد نقدية وابداعية وافدة من الغرب. ولقد امتص هذا الشاعر رحيق عصر الإحياء الشعرى فاكتمل بناؤه اللغوى والعروضى ولكنه فجر - فى هذا الإطار الذى تحول على يديه إلى عاصفة شعرية - عالما غير مألوف من الصور الموغلة فى بعدها عن النمط التقليدى الساكن. واجتاح شعره خيال جامح وصفه الدكتور محمد مندور فيما بعد بأنه (خيال وحشى)، ولأن محمود حسن إسماعيل قد ولد فى صعيد مصر وفى بيئة ريفية خالصة فقد احتلت الطبيعة وجدانه بل نستطيع أن نقول إنه هو نفسه تحول إلى جزء من الطبيعة التى ولد فى أحضانها. لقد حمل شعر محمود حسن إسماعيل إلى الشعر العربى فى الثلاثينيات من القرن الماضى فى مصر على وجه الخصوص هزة عاتية فتحت فى شرايينه دقات عميقة وغزيرة من مشاهد ومعاناة الريف المصرى وحيرة الشاعر بين جمال الطبيعة الخلاب وبؤس الإنسان الذى يصنع هذا الجمال الأسر. ولقد جاء ديوانه الأول «أغانى الكوخ» نشيدا متصل المقاطع يدور فى رؤيته وبنيته وتجربته حول انصهار الشاعر فى الطبيعة واعتصار الإنسان حتى الشقاء فى الأكوخ التى تشيد من دمعها ودمائها وعظامها قوائم القصور وأبائها الفسيحة.

صدر ديوان «أغانى الكوخ» فى يناير ١٩٣٥م فكان بشارة بميلاد الشاعر وإضافة لموضوع الشعر العربى فى هذه الحقبة التى كان يسيطر عليها شعر المناسبات وحضور شاحب لامرأة خيالية تحترف تعذيب الشعراء. وبهذه البداية القوية ارتفع صوت الطبيعة أو بالأحرى صوت الريف المصرى فى قاعة العصر وحاضرة البلاد ليتدفق سيل من القصائد حول الكوخ والفأس والسنبلة والغراب والساقية وزهر الفول وكنز الذهب الأبيض والفراش وأجراء الأرض والنخيل.

واكتسبت الطبيعة التى يصورها محمود حسن إسماعيل خصوصية موهبة الشعر الجامحة وخصوصية الريف المصرى الذى يعبر عنه ، ومن ثم نرى أن أهم قسامات هذه الطبيعة عنصران يبدوان وكأنهما على طرفى نقيض العنصر الأول هو وحشية هذه الطبيعة وجيشانها بصر من الحركة والفرح والحزن والموت تتبدى وكأن الشاعر قد أحالها إلى كائن شديد الانفعال والهياج يتمدد بين السماء والأرض فى حالة تميل مرة إلى نشوة التصوف ومرة أخرى إلى تمرد الحس الجامح والعنصر الثانى هو ألفة هذه الطبيعة بما تحتوى عليه من مشاهد ترافق الإنسان فى كل ساعات نهاره وكأن هذه الطبيعة تمثل بيتا خاصا للإنسان الذى يسكنه ولعل قصيدة «الساقية» من أبلغ الدلائل على هذا التناقض الحميم فى جسم الطبيعة حيث يؤسس الشاعر رؤيته على المفارقة الدالة على واقع يجمع بين عناصر الجحيم والنعيم فى مكان واحد ، يقول محمود حسن إسماعيل :

ناحت فلا الزهر على عوده ألقى عقود الطل من جيده
ولا مغنى الطير فى وكوره رق لها وازور عن عوده

ولا رثى المطراب فى أيكه	من ساجع الروض وغريده
والعاشق البلبل فى عشه	أسرف فى نجوى معاميده
يختال فوق الغصن مستلهمها	وحى الهوى من روح معبوده
أقام للبيستان عيد الهوى	فراح يلهو الروض فى عيده
لم يسمع النوح لمخفوقه	تشكو إلى الدهر أسى قيده
خرساء لكن صوتها صارخ	يذيب قلب الصخر من وجده

ولقد تتابع ولع الشاعر بالطبيعة التى منحها كل صفات الإنسان من التألم والغناء والحركة والحزن والموت والبكاء والحب والصلاة، ففي ديوانه الثانى «هكذا أغنى» يفرد جزءاً هاماً من الديوان لمقاطع شعرية حول موضوع «وطن الفأس» وفى هذه القصائد نعثر على المزج بين صورة الطبيعة وصورة الإنسان الذى يرعاها فهو يرسم صورة لهذا الريف الذى يسميه «جنة».

عربد الزهر من شذاها فأفشى	سر جناته على نفحاته
والفراش الوديع يسبح فى الأيك	ويحسو العبير من زهراته
ومن الطير سجمة ورنين	ومن النحل زفة فى رباته
وهنا هدهد تولع فى الحقل	بظل يفىء من نخلاته

الشاعر يعرض لمظاهر هذه الطبيعة من زهور و Fraشات وطيور وهو يتميز عن غيره من شعراء الرومانسية بهذا التخصيص للنباتات والطيور فى البيئة المصرية، كما نرى ولعه بزهرة القطن والفول و طائر أبى القصاد والغراب والهدهد وهو يعهد بكل هذه المشاهد والحركات إلى ظهور الإنسان الذى يتوارى فى تواضع وشقاء وراء هذا العرس الاحتفالى

الكبير وهو يخلع على هذا الإنسان صفة لها دلالتها على تجرده وزهده فهو يعطى بلا بخل وهو فى عمله أقرب إلى العابد الذى يضحى من أجل أن يصون قدسية هذا الوجود هو ناسك كما يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل :

جنة نضرة الخمائل فى الريف نماها معذب فى حياته
ناسك فى الحقول هيمان بالأرض يجلى بتربها دعواته
حملت فأسه من الغيب سوا حير لعقل كامن من صفاته
حطب يابس يمر على الصخر فتزهو الورود فى جنباته

ثم يعطيه صفة أخرى قد لا تخطر على بال شاعر آخر حين يقول :

جنة برة الأفانين لفا نماها معذب فى حياته
شاعر فى الضحى يغنى فتصغى كل سوسانة على رابياته
سرق الطير شوه حين فاضت خلجات الإيمان من أغنياته
وبكى النبات شجوه حين غنى وأذاع الشجون فى نبراته

لقد أقام الشاعر محمود حسن إسماعيل بين هذه الطبيعة - التى تتفرد بخصائص المكان «مصر» والزمان فى مطالع هذا القرن - وبين الإنسان الذى يعمرها علاقة فريدة هى علاقة تراسل وتواصل وحنان وهى علاقات خلقها الشاعر فى شعره حين أنطق الزهر وأبكى الساقية وأدخل الطيور إلى المعابد وأضفى على النخيل سمات الهيبة والجلال... هو يلجأ إلى تحرير الإنسان من خلال تحرير العلاقات بين عناصر الطبيعة وهو يولد من هذه العلاقات الجديدة قيما إنسانية واجتماعية وربما فكرية وفلسفية فهو يؤمن بالحب متمثلا فى العلاقة بين المرأة والرجل

بين ذاته والجمال ولكن حتى الحب يكتسب خصوصية المكان أيضا فهو يربط بين الريف والعفة وبين المرأة والطبيعة وبين المرثى وما وراء الطبيعة. هو لا يسعى إلى الافتتان بالمجرد بالجمال بل يسعى بدافع من نزعة أخلاقية في إنصاف المظلومين والاحتفال بالبراءة والطهر ونشدان المألوف والحميم من العلاقات الروحية العميقة وهو بهذا يفترق عن شعراء الرومانسية من معاصريه أمثال ناجي وعلى محمود طه، فقد كان بعيد الغور في الكشف عن رؤية شعرية تلتفت إلى المكان والزمان وإلى ما وراء الطبيعة أيضا؛ ولهذا يعد محمود حسن إسماعيل هو الحلقة القوية بين مدرسة أبوللو الرومانسية ومدرسة الشعر الحديث باتجاهاتها الرمزية والواقعية ومعطياتها الوطنية.. من هنا أيضا تركز رؤيته الشعرية على عنصر يتبدى من أهم العناصر الواقعية وهو الإنسان، وقد استطاع محمود حسن إسماعيل أن يمنح الطبيعة بعض صفات الإنسان وحاول أن يلحق الإنسان ببعض صفات الطبيعة.

